

١٥٠

حكايات

رئيس التحرير أنيس منصور

د. عبد الحكيم راضي

النقد والتجديد في الشعر العباسي



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١٦٩ كورنيش النيل القاهرة ج م ع

مقدمة

يقوم هذا البحث على تصحيح فكرة خاطئة شاعت عن النقد العربي في عصوره الأولى . . ويتم هذا التصحيح من خلال منهج خاص يقدمه ، ويلتزمه ، المؤلف .

أما الفكرة التي يقوم على تصحيحها فهي ما لحق بالنقاد العرب - خاصة أوائلهم ممن عاشوا أواخر القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني الهجري - من تهمة التعصب على الشعراء المحدثين - خاصة المجددين منهم - ورفض شعرهم ، وتفضيل الجاهليين عليهم .

ومن هنا يجيء دور المنهج الذي يراه المؤلف ملائماً في دراسة مثل هذه الموضوعات - في تراثنا القديم بالذات - ويقوم هذا المنهج على مراعاة الاتجاه الكلي العام ، والنتائج النهائية لهذا الاتجاه ، دون الارتباط بجزئية واحدة معينة على أساس أن التركيز على الجزئيات - منفصلة - قد يوقع في الخطأ - وربما التناقض - الذي تعصم منه النظرة الشاملة ، والبدء بتكوين اتجاه عام يقوم على استقراء الجزئيات بالفعل ، ليتحول - بعد ذلك - حكماً على هذه الجزئيات بالقبول أو الرد .

في ضوء هذا المنهج يكون علينا أن نستعرض نماذج من المواقف

العامة لأعلام النقاد الأوائل ، وذلك في مواجهة الدعوى المتكررة بتعصيمهم على شعر المحدثين . . الأمر الذى يقتضى محاولة لتعليل الأخذ بهذه الدعوى أصلاً ، حيث تشير الدلائل إلى أن الإخلال بمقتضيات القراءة الصحيحة لنصوص النقد العربى ، وفقاً للمنهج الذى أخذنا به . . هذا الإخلال هو العامل الكامن وراء الوقوع فى هذا اللبس . ثم تعقب ذلك محاولة للتفسير - التفسير لبعض النصوص الصريحة فى تفضيل صفة القدم على صفة الحدائثة فى الشعر . وتكشف هذه المحاولة - بدورها - عن علة أخرى لدعوى تعصب أوائل النقاد للقديم ، على أساس عدم الفهم لطبيعة المهمة المزدوجة التى كان عليهم الاضطلاع بها . . أعنى العمل على تنقية اللغة وجمع نماذجها الصالحة لاستنباط القواعد منها ، وفى نفس الوقت القيام بعملية التقويم - من زاوية فنية - لتراث الشعر ، السابق عليهم والمعاصر لهم ، وهو ما دعا إلى تعدد فى المواقف ، أدى - بدوره - إلى تضارب ، فى الظاهر ، بين القبول والرفض بعيداً عن قضية التعصب المطلق للقديم ضد المحدث .

د . عبد الحكيم راضى

مدرس البلاغة والنقد

كلية الآداب - جامعة القاهرة

موقف قدامى النقاد من شعر المحدثين

كما تصوره الدراسات الحديثة

ونعود إلى تفصيل دعوى تعصب قدامى النقاد على شعر المحدثين ، وهي الدعوى التي دأبت الدراسات الحديثة على ترديدها بصورة موقف أولئك النقاد - من نحاة ولغويين ورواة - من شعر المحدثين ومن حركات التجديد في الشعر العربي ، على أنه موقف التعصب لقديم ضد كل ما هو جديد ، وأن أولئك النقاد قد ظلوا - حتى بعد : تسامحهم) في رواية شعر المحدثين - لا يقبلون منه إلا ما كان سائراً في ركاب القديم في أسلوبه وبنائه الفني . . وقد تمادت الدراسات الحديثة في تثبيت هذا التصور إلى حد القول بأنه لم يكن لأولئك النقاد من حيتيات في رفض شعر المحدثين وقبول الشعر القديم سوى عامل الزمن : مهم قد رفضوا الحديث لمجرد حداثة ، وقبلوا القديم لمجرد قدمه .

وراح أصحاب هذه الدراسات يحملون أولئك النقاد مسئولية كل ما تصوروا أنه نتيجة لتزعة محافظة في الشعر العربي ، كما يحاوا يحشدون النصوص التي تؤيد هذا التصور ، وهي وإن تكن نصوصاً معدودة واردة في جميع الأبحاث بلا استثناء تقريباً ، فإنها تؤكد إخلال هذه

الأبحاث بشروط القراءة الصحيحة اللازمة لفهم النقد العربي القديم على حقيقته .

ويمكن التأكيد من هذا باستعراض نماذج من تناول الدارسين المحدثين لهذه القضية ، فقد اكتفى هؤلاء الدارسون ببضعة نصوص غامضة ، قد يحمل بعضها الدلالة على (احترام) بعض النقاد للقديم ، دون غض من شعر المحدثين ، أو يجعل بعضها الإشارة إلى مآخذ معينة ليست مقصورة على شعر المحدثين ، وقد لا يشير بعضها إلى شيء على الإطلاق .

لقد أشار نكلسون (R.A.Nicholson) مثلاً - في كتابه (التاريخ الأدبي للعرب) الذي صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٠٧ إلى أن متقدمي اللغويين والرواة قد حكموا في تقويم الشعر مقياساً زمنياً ، أساسه أن التقدم في الزمن دليل على الثبوت الشعري ، بينما يدل التأخر على الانحطاط ، وأن الحد الفاصل هو ظهور الإسلام ، ويؤكد هذا بإشارته - في بعض تعليقاته - إلى عبارة أبي عمرو بن العلاء التي أعلن فيها أنه ما كان ليفضل أحداً على الأخطل - الشاعر الإسلامي المعروف - لو أنه كان قد أدرك يوماً واحداً من الجاهلية . وإذا كان نكلسون يجعل من ابن قتيبة أول ناقد يسوي بين المحدث والقديم ، ويقبل الشعر على أساس ما فيه من ميزات لا على أساس عصره ، أو - كما صرح في موضع آخر - أن ذلك الناقد هو الذي حث على أن يُقوِّم المحدثون على أساس جمالي

وليس على أسس تاريخية أولوية . . . فإن، هذا لا يعنى أكثر من أنه يلحق تهمة التعصب ضد شعر المحدثين بكل الزناد فيما قبل ابن قتيبة .

وهذا نفسه ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور طه حسين في مجموعة من المقالات الأسبوعية نشرها في أعوام ١٩٢٢ - ١٩٢٤ في جريدة (السياسة) جمعها موضوع واحد هو (القدماء والهمدثون) وقد أكد في هذه المقالات أن العرب كانوا أحراراً في الحياة المادية . . . محافظين في الحياة الأدبية ، وأن الشعراء الذين كانوا يجرؤون على أن ينكروا هذه المحافظة ويحاولوا تحرير الشعر قليلاً أو كثيراً ، كانوا يتعرضون لسخط الأئمة وعلماء الدين ، وأن أولئك الأئمة والعلماء كانوا بطبيعتهم منازلهم الدينية حريصين على القديم أعداء لكل جديد ، كما كانوا أيضاً - بحكم منزلتهم اللغوية - مضطرين إلى أن يحتفظوا بقواعد اللغة وأصولها . فحسب ، بل بألفاظها وأساليبها أيضاً ، مما جعل موقف الشعراء المحدثين حرجاً - تماماً كموقف الفلاسفة المحدثين - وقد تعرض هؤلاء وأولئك للحبس والضرب والقتل ، وغير ذلك من ضروب الاضطهاد .

وقسم المرحوم الأستاذ طه إبراهيم قدامى النقاد إلى فريقين : المناصرين للجديد والمتعصبين للقديم ، وقال : إن أخص الناس الذين كانوا يتعصبون للقدماء ولا يكادون يقرون بإحسان لمحدث هم النحويون واللغويون ، ومثل لأولئك بآبي عمرو بن العلاء - الذى وصفه بشدة التعصب للجاهليين بحيث لم يكن يرى الشعر إلا لهم ، وأن من بعدهم

ليسوا بشيء ، وأنه غالى في ذلك مغالاة صرفته إلى النظر إلى المتقدم بعين الجلالة لا لسبب إلا لأنه متقدم ، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لا لسبب إلا لأنه متأخر ، وحتى أتمام الموازنة على العصر لا على الشعر ، ووصف كبار الشعراء الإسلاميين - أمثال الفرزدق وجريز والأخطل - بأنهم (محدثون) ، وصرح بما يفيد أنه لا يروى أشعارهم . ويقول المؤلف : إن من كان هذا شأنه ، مع الإسلاميين فأحرى به ألا يسلم بفضل مولد - يعنى الشعراء الجدد . ممن دخل في نسبهم عنصر أجنبي - ويؤكد أن النقاد اللغويين قد استمروا في القرنين الثاني والثالث على نفس النظرة ، واهدين في الشعر المحدث ، مولين وجوههم عنه ، مؤثرين عليه القديم .

وإني سنة ١٩٣٩ كتب المرحوم الأستاذ أحمد أمين مقالاً بعنوان (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) جاء فيه أن الشعر العباسي لم يسلم الحياة الجديدة التي أخذ بها ذلك العصر ، وأن السبب في هذا هو وجود فريق من اللغويين - أمثال الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وابن الأعرابي - تزعم الدعوة إلى القديم ، خاصة الشعر الجاهلي ، وأن الصراع بين ذلك الفريق وبين دعاة التجديد من الشعراء - أمثال أبي نواس - قد انتهى بانتصار لدعاة إلى القديم ، بحيث ساد تقديس الشعر الجاهلي وكل شيء جاهلي ، مما شل الأدب العربي شللاً قضيماً وأثر في انعدام حركة التجديد في الشعر وعدم مسابرة لروح العصر وانحباسه في قوالب تقليدية لا يتعداها .

وقد استمر على نفس الرأى فى كتابه (النقد الأديبى) ورأى أنه كان من أثر فريق المحافظين «تخوف كثير من الشعراء أن يخرجوا على التقاليد القديمة فيثيروا سخطهم ونقدهم» .

وسار المرحوم الدكتور محمد مندور فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) فى نفس الاتجاه ، وأكد حرص علماء اللغة على الشعر القديم ، إذ كانوا يتخذونه حجة فى تفسير القرآن والحديث ، وقال : إن اتصال الشعر بالدين على هذا النحو كان السبب الأكبر فى الانتصار للقديم ، وإن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل امتد إلى الشعراء أنفسهم ، إذ لم يروا بدءاً - لكى يُروى عنهم شعرهم - من أن يحاكو الشعر القديم ، لافى أسلوبه فحسب ، بل فى بنائه الفنى . من هنا انتهى الأمر بالشعراء العرب - فيما يقول - إلى أن حسبوا أنفسهم فى تفاصيل الصور والمعانى القديمة .

وأكد المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة فى كتابه (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) أن العلماء باللغة والنحو ورواية الأدب ممن يعتمدون على القديم قد «وقفوا أمام المحدثين رصداً ، يعدون عليهم أنفاسهم ، ويميزون بين الحار منها والبارد ، فإذا أحسوا بنفس جديد خفقوه فى أول ترده مخافة أن تستطيل به الحياة» ويقول : إن «مثل هذا الظلم قد وقع فعلاً ، وعانى منه الشعراء كثيراً . . . وأثر تأثيره بالرجعة إلى الوراء» . . من هنا لم يقف الشعراء المحدثون عند حد ما يملكه الزمن والمدنية الحديثة

التي عاشوها ، وإنما جاروا- مضطرين أو متعمدين - الرواة وعلماء اللغة الذين كانوا يعترضون بالقديم .

كذلك ذهب الأستاذ الدكتور شكرى عياد في دراسته عن أثر الترجمة التي قام بها العرب لكتابة الشعر الأرسطى على البلاغة العربية . . إلى أن نشأة النقد العربى الخالص - كما يمثلها كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام- كانت شديدة الاتصال بعلوم العربية ، وأنه لهذا السبب قصر أعلام ذلك النقد- من الرواة واللغويين - عنايتهم على الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، وم ينظروا فى شىء من شعر المحدثين ، ويقول : إن النقد العربى «ألزم المحدثين منهج القصيدة العربية» وأنه كان نقداً جزئياً ذاتياً ، وأنه حين قرر قانوناً عاماً «كان هذا القانون هو اتباع الأقدمين» .

وعرض الدكتور محمد مصطفى هدارة ، فى بحثه عن (مشكلة السرقات فى النقد العربى) لموضوع الخصومة بين القدماء والمحدثين ، وأشار إلى انقسام النقاد والأدباء إلى فريقين ، أحدهما يدافع عن القديم ويتعصب له ، والآخر يدافع عن الحديث ويتعصب له ، ومثل الفريق الأول رواة الشعر وعلماءه ، الذين كانوا الفئة المهيمنة على أذواق الناس وفهمهم لطبيعة الشعر ، والذين حاولوا الانتقاد من شعر المحدثين ما أمكن . هذه نماذج - فقط - من أقوال الدارسين المحدثين فى اتهامهم النقد العربى القديم ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثانى - وبالذات فى بيئة الرواة واللغويين والنحاة - الذين مثلوا نقاد الشعر فى

تلك الفترة - بالتعصب ضد شعر المحدثين ورفضه ، وهناك نماذج أخرى ، كثيرة تسير في نفس الخط لا داعي لذكرها طلباً للاختصار .

• • •

إن السؤال الذي يفرض نفسه - منطقيًا - بعد سماع هذه الآراء . . . يتعلق حتمًا بالمبررات - أو الأسباب - التي استند إليها أصحاب هذه الدعوى - أعني دعوى تعصب النقد العربي القديم ضد شعر المحدثين في العصر العباسي ، خاصة أصحاب نزعات التجديد من بينهم . وهنا نجد تعلق هؤلاء الدارسين بعدد قليل من النصوص والتصريحات والأحكام التي تنسب إلى الرعيل الأول من النقاد ، فهم ينسبون إلى أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) قوله عن الشاعر الإسلامي الأخطى : إنه لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ما فضل عليه أحداً ، وأنه لم يكن يحتاج بأشعار الإسلاميين ، وأنه سمّاهم (محدثين) ، وأنه لهذا السبب - أي لحدائهم - لم يكن يروى أشعارهم ، وقال عنهم « ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، لیس الخط واحد ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح وقطعة نطع ، - أي أن مستوى شعرهم في غاية التفاوت - وهم يوردون قصة لخلف الأحمر (ت ١٨٠ هـ) مع الشاعر ابن مناذر الذي طلب من خلف أن يقارن بين شعره وبين أشعار الجاهلين ، وقصة أخرى مماثلة لنفس الشاعر مع أبي عبيدة (ت ٢٠٩ هـ) وبالمثل يذكرون قصة إعجاب الأعرابي

(ت ٣٢١ هـ) بأرجوزة لأبي تمام - على أنها لشاعر من هذيل - وأمره بكتابتها ، ثم تمزيقه لها حين علم أنها لأبي تمام . ويحكون عن الأصمعي (ت ٢١٥ هـ) موقفاً مشابهاً مع يتين لإسحاق الموصلي ، فقد رجع الأصمعي عن استحسانه للبيتين حين علم أنهما لإسحق . كما يذكرون إعجابه الشديد بالشاعر ابن هرمة ، وتصريحه بأنه ما يؤخره عن الفحول - عنده - إلا قرب عهده .

وعلى نحو من وصف أبي عمرو لشعر المحدثين بالتفاوت في المستوى ، يذكرون - بالمثل - قول ابن الأعرابي عن تلك الأشعار : إنها مثل الريحان يُشَمُّ يوماً ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً ، وكذلك يتقلون قوله ، وقد سئل عن بعض شعر أبي نواس : أما هذا من أحسن الشعر؟ فقال : بلى ، ولكن القديم أحب إليّ .

وهناك أخبار أخرى قليلة نحو ما ينسب إلى أبي رياش القيسي في تعصبه على أبي تمام والبحترى ، ومن هذه الأخبار ما ينسب إلى إسحاق الموصلي نفسه ، وأنه - وهو الشاعر المحدث - كان يفضل شعر القدماء على شعر المحدثين . .

صورة واقعية

من مواقف قدامى النقاد

وكما قلنا تمثل تلك الآراء والنصوص المنطلق الذي صدر عنه الدارسون المحدثون في القول بدعوى مقاومة النقاد العرب لترعات التجديد لدى الشعراء العباسيين ، وهي دعوى غير صحيحة - فيما نرى .

ويقتضى التصحيح أن نبدأ بإعادة النظر في مواقف ذلك الفريق من النقاد على أساس من نظرة شاملة تتخطى ما يمكن تسميته بـ (التنوءات الهشة) الممثلة في النصوص القليلة والمشوشة التي اعتمد عليها هؤلاء الدارسون ، وانطلاقاً من هذه النظرة يمكننا أن نتبين أن أعلام ذلك النقد لم يكونوا بهذه الصورة من التعصب للقديم والمقاومة لكل جديد ، بالعكس من ذلك نتبين أن الجديد كان دائماً محل قبولهم ، أكثر من هذا أنهم حثوا عليه ، ونهبوا على من سولت له نفسه أن يستعير من غيره ، ولقد جاء الوقت الذي أصبح فيه هذا الشاعر أو ذاك يُفَضَّل على غيره لأنه مجدد ولأنه مبتكر ، ومعنى هذا أن هناك خطأً متصلاً في النقد العربي ليس عماده التعصب ضد الحديث وتقديس القديم ، وإنما عماده قبول التجديد والترحيب به ، وهذا ما توضحه القراءة المتأنية والمجردة من أية

أفكار مسبقة عن ذلك النقد .

وعلى سبيل المثال : أبو عمرو بن العلاء . . أشهر من اتهموا بالتعصب ضد ما ليس جاهلياً ، لقد نالت طبقة الإسلاميين الكثير من تقدير ذلك الرجل ، وأعجب بواحد منهم على وجه الخصوص هو الأخطل . كما أعجب أيضاً بشعر محدث آخر هو جرير ، الذي كان يُشبهه بالأعشى - على نحو تشبيهه للأخطل بالنابغة ، وللفرزدق بزهير - والذي كان يجلس إليه يستمع إلى شعره ، وهو يمليه ، ثم يقوم بنصيبه من روايته وتصحيحه . كذلك كان يقوم بدور الراوية لما يدلى به الشاعر من أحكام نقدية على غيره من الشعراء . وهذا نفسه هو الموقف الذي كان يتخذه من الفرزدق وذى الرمة الذي روى شعره ووصفه بأنه فصيح ، والذي اختار من شعره مثلاً للأبيات المتمكنة القوافي ، ومثلاً لأطراف بيت قالته العرب ، كما أمدى إعجابه الشديد بالاستعارة في قوله :

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى
ولف الثرى في ملامته الفجر

. ونراه يختار أغزل بيت قالته العرب من شعر عمر بن أبي ربيعة ، كما كان شديد الاستحسان لشعر عدى بن الرقاع الذي اختار من شعره ومن شعر الراعي ولطرمّاح وذى الرمة أمثلة للتشبيهات العقم (التشبيهات المبتكرة) .

وإذا كانت هذه الروايات تصحح ما كان شائعاً عن ذلك الرجل من

إغفاله ، بل اردرائه لشعر الإسلاميين ، فإنها تؤكد أيضاً أن الرجل كان على معرفة بأشعار مُخَضَّرَمِي الدولتين - الأموية والعباسية - كأبي حبة أميرى ، والشاعر المعروف بابن المولى . بل إنه كان على معرفة بشعر بشار - أحد رواد البديع وزعيم المحدثين - وهو عنده أبداعُ الناس وأمدحهم و أهجأهم بيتاً ، كما أنه واحد من أصحاب أحسن الابتداءات في رأيه .

أما الأصمعي فهو من أستاذة أبي عمرو : يروى للإسلاميين ، ويفصلهم أحياناً على الجاهليين ، وقد جاء في «الأغاني» ، أن أبا عبيدة والأصمعي كانا يقولان عن بيتين للطَّرِمَّاح إنه فيها أشعر الناس ، كذلك يسجل الأصمعي إعجابه بابن هرمة الذي كان يَحْتَمُّ به الشعراء ، والذي روى شعره ووثقه حيث كان هذا الشعر يراجع على روايته .

ولا يلبث أن يَحْتَمُّ الشعراء بشاعر أحدث ، هو بشار ، الذي تتبع الأصمعي أخباره ومناسبات شعره يسجلها ويروها ، وهو مصدر عدد غير قليل من أخبار ذلك الشاعر في «الأغاني» ، بل إنه يتبع أوليات شعره وقصص اشتهاره كشاعر مرهوب الجانب ، وكشاعر مدَّاح أيضاً ، وهناك أخبار تشير إلى تبعه لصدى شعره في نفوس الناس ، ومناقشته أسباب ذبوعه مع الشاعر نفسه . وتراه يعلن إعجابه بقدرته ذلك الشاعر على التشبيه بالرغم من ظروفه الخاصة التي كانت تمتعه من رؤية

الأشياء ، وقد وصفه بأنه (يشبه الأشياء بعضها ببعض فيأتى بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله) .

وقد شرح في مواضع أخرى أسباب إعجابه بذلك الشاعر ، وهي تدور حول كثرة فنونه وسعة تصرفه ، وأنه كان مطبوعاً لا يكلف طبعه شيئاً متعذراً ، وكان يشبهه من بين القدماء بالأعشى والتابغة الديقاني . وتجدر الإشارة إلى أن تشبيه هذا الشاعر أوداك من المحدثين بشاعر أو أكثر من الجاهليين أو المخضرمين لا يعنى أن ذلك 'التفريق من النقاد كان يفضل من المحدثين - أو يقبل - من يسير على النهج القديم ، ونجاري القدماء في كل شيء ، كما هو الظن' الشائع لدى الدارسين في العصر الحديث - فهذا الظن لا يستقيم مع تعليل الأصمعي تفضيله لبشار على مروان حين سئل : أيهما أشعر؟ فأجاب : بشار (فَسُئِلَ عن السبب في ذلك ، فقال : لأن مروان سلك طريقاً كثير من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه ، وبشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يسلك ، وأحسن فيه ، وتفرّد به ، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر ، وأغزر وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل) .

وسجل الأصمعي إعجابه بشعر السيد الحميري ، الشاعر الذي صرف شعره إلى خدمة مذهبه الاعتقادي ، وقال إنه لولا مذهبه في سب السلف ما قدم عليه أحداً من طبقته . كذلك نال العباس بن الأحنف قدراً ملحوظاً من إعجاب الأصمعي وتقديره ، وقد أنشد بعض شعره

على أنه أحسن ما يحفظ للمحدثين .

واستحوذ أبو نواس على إعجاب الأصمعي إلى أبعد الحدود ، وفي «طبقات الشعراء» لابن المعتز قصة تبدأ بمنادمة الأصمعي للفضل ابن يحيى البرمكي ، وبشد الأصمعي بيتاً لأبي نواس في الخمر ، ثم يشد القطعة كاملة بناء على رغبة الفضل ، ثم يقول عن أبي نواس إنه بمكان من الأدب . . وهو من الشعر بالمحل الذي قد علمته ، أليس هو القائل :

ذَكَرْتُمْ مِنَ التَّرْحَالِ يَوْمًا فَمَمَّنَّا فَلَوْ قَدْ فَعَلْتُمْ صَبَّحَ الْمَوْتُ بَعْضَنَا
ثم يندفع فيشد القصيدة بأكملها ، وهي في مدح الفضل ، ومقدمتها ألصق بالمقدمات الجديدة : تقوم على الغزل . وترفض الرحلة على الإبل ، وتنص على السير فوق النعال ، ومن يقرأ ما صوره ابن قتيبة على أنه من شروط المقدمة التقليدية ، والتي لم يتمسك هر نفسه بها ، يعلم أي خروج صريح على ما عدُّ من التقاليد ، اشتهت عليه قصيدة أبي نواس التي تمثل بها الأصمعي ، الذي صرح في أكثر من موضع بكثرة روايته من شعر أبي نواس ، كما عني بتسجيل بعض ما سبق إليه من معان .

ولم يكن أبو العتاهية - بكل خصائص شعره المعروفة - (من سهولة اللغة ، وعامية الموضوعات ، وخفة الأوزان) خارجاً عن دائرة اهتمام الأصمعي ، فقد كان يستحسن شعره ، ويصفه وصفاً ينطبق على

أوصاف الشعر المثالي في نظره . كما أبدى استحسانه لشاعر عباسي آخر هو محمد بن حازم الباهلي . ورغم التنافس الحاد الذي كان بين الأصمعي وبين إسحاق الموصلي ، والذي قد يعطل بعض ما رُوِيَ من مآخذ الأصمعي على ذلك الشاعر ، لم يتردد الأول في إعلان استحسانه لشعر الأخير في أكثر من مناسبة .

وثالث من اشتهروا بالتعصب ضد المحدثين هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي - وغالباً ما تقوم التهمة المنسوبة إليه على أساس موقفه من شاعرين عباسيين نقلت بعض الأخبار عن طعنه عليهما ، وهما أبو نواس وأبو تمام ، كما تقوم على تصريح ينسب إليه يشير فيه إلى تفضيل القديم عموماً .

على أن حقيقة موقفه من الشعراء المحدثين في عصره لا تختلف عن موقف غيره من النقاد ، قبولاً لشعر أولئك الشعراء وتنوياً به ، وقد صرح مرة بأنه يحنم الشعراء بابن هرمة ، وصرح مرة أخرى بأنه يحنمهم بمروان الذي حظى بغير قليل من تقدير ذلك الناقد . ونراه يثنى على العباس بن الأحنف ، وقد وُصف شيئاً من شعره بأنه (كلام قريب مليح) .

وهو واسع الاطلاع على شعر أبي نواس ، وقد جعله صاحب أمدح بيت قاله مولد ، كما يثنى على بعض افتتاح حياته مستبعداً أن يكون في مقدور أحد من معاصريه أن يأتي بمثله ، ونراه يشارك جلساءه في

استعراض شعره في الحمر واختيار أحسن بيت قاله الشاعر في الموضوع ، وفي (زهر الآداب) خبر عن طعن ابن الأعرابي على أبي نواس ثم رجوعه عن ذلك ، إلى كتابة شعره وروايته وهذا ما يؤيده خبر عند ابن منظور عن كتابة ابن الأعرابي لشعر أبي نواس في صحيفة خاصة به كان يخفيها عن الناس .

واحتفل ابن الأعرابي بشعر أبي العتاهية وروى كثيراً من شعره وأخبره ومناسبات شعره ، وتعدى ذلك كله إلى الدفاع الصريح عن الشاعر وإظهار مزايا شعره والإشادة به فيما يشبه المناظرة مع أحد عائبه الذي عارضه ابن الأعرابي وسقاه رأيه ، منشداً نماذج من شعر الشاعر ، واصفاً مذهبه بأنه (ضرب من السحر) .

كذلك أعجب بشاعر مغمور لم يكن بذى مكانة في قصور الحكام ، وهو محمد بن حازم الباهلي - الذي سبق أن رأينا إعجاب الأصمعي به - وقد صرح بأنه لا يعرف في التفجّع على الشباب ودم الشيب - على كثرة ما قاله العرب في هذا الموضوع - أحسن مما قال ذلك الشاعر . وهو يجعل الشاعر العباسي محمد بن وهيب صاحب أهجى بيت قاله المحدثون ، كما يبدو شديد الإعجاب بإسحاق الموصلي ، وقد جاء في «الأغاني» أنه كان يصفه ويقرظه ويثنى عليه ، ويذكر أدهب وحفظه وعلمه ، كما كان يستحسن قوله :

هَلْ إِلَى أَنْ تَنَامَ عَيْنِي سَبِيلُ إِنْ عَهْدِي بِالتَّوَمِ عَهْدٌ طَوِيلُ

غَابَ عَنِّي مَنْ لَا أَسْمَى فَعَنَى كُلُّ يَوْمٍ وَجَدًا عَلَيْهِ تَسْبِيلُ
وقد كان يعتبره - فيما يذكر الخاتمي - من أحسن الابتداءات التي
للمحدثين .

هذه أيضاً أمثلة - فقط - توضح أن ذلك الفريق من النقد لم
يكونوا بمعزل عن تيار الحياة في عصرهم ، وأنهم لم يكونوا في صف
القديم على طوى الخط ، وأن العكس هو الأقرب للصواب . . ولم نشأ
أن نستفد كل ما نقل من أخبار أولئك النقاد الثلاثة في هذا الصدد ، كما
لم نحاول الوقوف عند بقية زملائهم ، على الرغم من كثرة الأخبار التي
تؤكد قبولهم لشعر المحدثين وروايتهم له .

حول شروط القراءة الصحيحة

لنصوص النقد العربي

وأمام هذه الحقيقة يعود إلى الذهن السؤال عن الأسس التي أقام
عليها دارسو النقد العربي المعاصرون تصويرهم للموقف على أنه تعصب
من جانب قدامى النقاد ضد الشعراء المحدثين في عصرهم ، ومرة أخرى
لا نجد إلا مجموعة النصوص التي سبقت الإشارة إليها ، وهي - كما
رأينا - قليلة - من ناحية - فضلاً عن عدم توافر الدلالة في بعضها -
من ناحية ثانية - وتعلق البعض الآخر بأحكام عامة لا تقتصر على شعر

المحدثين - من ناحية ثالثة - ثم تعلق البعض الآخر بأمر لغوية ونحوية من ناحية رابعة .

من هنا يمكننا القول - مطمئنين - إن تصوير موقف النقد العربي على أنه موقف الرفض لشعر المحدثين لا يستند إلى حقيقة ذلك الموقف بقدر ما يقوم على أخطاء في كيفية القراءة والفهم لنصوص النقد العربي القديم . من هذه الأخطاء :

(١) الخلط بين الاتجاه العام المؤثر وبين النصوص المفردة :

وهذا واضح في تغليب هؤلاء الدارسين لهذا العدد الضئيل من النصوص على تلك الكثرة الهائلة من النصوص المروية عن أولئك النقاد - والتي استعرضنا بعضها - والتي تنقض من الأساس فكرة تعصبهم ضد المحدثين .

والواقع أنه ما لم يؤخذ الاتجاه العام لحركة النقد العربي في الاعتبار فإنه يكون من الصعب فهم أى موقف من مواقف ذلك النقد ، أو مواقف رجاله . إذ أن مجرد الوقوف عند النصوص - خاصة إذا كانت قليلة وغير قاطعة - لا يكفي ، حيث توجد - من ناحية أخرى - نصوص تنقضها ، وهو ما يمثل إحدى المشاكل التي لا يستطيع تقديم الحلول لها القولُ بفكرة التعصب ، حيث نصبح أمام نصوص متضاربة . وهذا مثال لعدم إمكان الاعتماد على النصوص المفردة .

لقد نقل الدارسون المعاصرون جميعاً - تقريباً - الفقرة التي تضمنتها مقدمة « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، والتي يرى فيها أن لا يخرج متأخر الشعراء عن مذهب المتقدمين و افتتاح القصيدة . وراح الجميع تقريباً يهتمون ذلك الناقد بالرجعية والجمود ، ودليلهم الوحيد هذه الفقرة ، على أننا ننظر بعد ذلك في كتاب الرجل فلا يرى أثراً للأخذ بما أعسه في مقدمته ، وهذا ما يؤكد استعراض ترجماته لبعض الشعراء المحدثين ممن عُرفوا بسمات تجديدية خاصة . من أولئك الشعراء بشار الذي اشتهر بأنه زعيم المحدثين وأنه سلك طريقاً مخالفاً للأوائل ، ومسلم الذي يعد من الرواد المباشرين لمذهب أبي تمام ، ومنهم أيضاً أبو نواس .

ولقد خالف بشار ما نص عليه ابن قتيبة من ضرورة الرحلة على الإبل وقطع الصحراء الخفيفة عليها ، وكذلك ضرورة الإلمام بالغزل في مقدمة القصيدة المدحية ، فترك كل وسائل الرحلة على البر ورحل إلى المهدي في سفينة وصفها ووصف الرحلة عليها ، كما أعلن إقلاعه عن الغزل في بعض مقدمات قصائده . ووقع « مسلم ابن الوليد في كثير من المخالقات للنهج الذي نص عليه ابن قتيبة ، سواء بإهمال الحديث عن الأطلال والانصراف إلى الحديث عن حياته اللاهية في مقدماته ، أو بالرحلة على سفينة كما فعل بشار . ومع هذا لا نجد في حديث ابن قتيبة عن بشار إشارة إلى هذا الخروج عما قرره الناقد ، وإنما يلفتنا عنده وصفه لشار بأنه من المطبوعين ، وأنه من أشعر المحدثين ، وكذلك اهتمامه

بتسجيل ما سبق إليه من معان ، كما يلفتنا في حديثه عن مسلم وصفه بأنه (أول من أَلطف في المعاني وورق القول) دون أن يشير إلى شيء من خروجه على المعارف - أو ما اعتبره كذلك - في مقدمة القصيدة . وكان ذلك نفسه هو موقفه مع أبي نواس رغم ما عرف عن دعوته إلى تغيير مقدمة القصيدة ، تلك الدعوة التي تبدو نقياً لدعوة ابن قتيبة على طول الخط ، وفيما عدا بعض الملاحظات الجزئية البسيطة لا نسمع في حديث ابن قتيبة عن أبي نواس سوى عبارات الاستحسان والتقريب ، والوصف بالعلم والرواية والسبق أيضاً .

هذا مثل على وجوب الاعتماد على الاتجاه العام عند الناقد دون الوقوف عند تصريح مفرد يصدره في هذه المناسبة أو تلك ثم يتراجع عنه في نقده التطبيقي ، وهناك أمثلة أخرى على رجوع الناقد - صراحة - عن بعض أقواله ، أو تصحيحه بالرأى ونقيضه وهو ما يؤكد عدم دقة الاعتماد على النصوص المفردة في فهم النقد العربي .

وسوف نوضح في فرصة أخرى ما وراء تصريح ابن قتيبة - الذي جلب عليه تهمة الرجعية - في حدود ظروفه التاريخية ، وحسبنا أن تؤكد أنه في مثل ظروف النقد العربي لا يكون أمام الباحث إلا أن يكرر النظر في الصورة مرات ومرات محاولاً أن يتبين فيها بعض الخطوط التي يمكن أن يكون لها حظ من الوضوح والاتصال ، وهو ما يضاف على الصورة شيئاً من المنطق وبكسبها صفة الاستمرار ويجنبها صفة التناقض ، ويكون

جل اعتماده هنا على الاتجاه العام في حركة النقد أكثر من اعتماده على النصوص الجزئية ، وإن كان لا يجعل هذه النصوص ، وإنما ينظر إليها من خلال الإطار العام الذى يطبع حركة النقد في عمومها بحيث يصبح هذا الاتجاه هو الذى يحكم على دقة النصوص - رغم أنه يقوم على أساسها - وليس العكس ، أى أن النصوص الجزئية لا تحكم نظرتنا إلى الاتجاه العام إلا بمقدار ما تتفق مع هذا الاتجاه .

ولا نغنى بما نسميه الاتجاه العام نظرة سابقة تتخب النصوص لتأييدها ، ويرفض ما يعارضها تحت دعوى عدم توافقها مع هذا الاتجاه ، ولكننا نغنى به نوعاً من الاستقراء القائم على النظرة الشاملة التى قد تتخطى بعض التسويات التى لا تتوافق مع اتجاه سير حركة النقد ، لا عن عمد لإهمال ما نسميه بالتسويات ، ولكن لأن هذا الإهمال والتخطى إنما يعتمد على انعدام أثر هذه النصوص ، وبالتالي لا ينبغى الوقوف عندها مادامت عديمة التأثير . ولا يمكن الحكم عليها بعدم التأثير ما لم ينظر إليها في ضوء غيرها من النصوص . وفي ضوء ملاءمة هذه النصوص واتفاقها مع النتائج ، بحيث تبدو النصوص المهملة غير ذات موضوع ، وهو ما يقوم سبباً مشروعاً لعدم الوقوف عندها .

(ب) التخلص من الأفكار المسبقة :

هذا عن وجوب مراعاة الاتجاه العام المؤثر في حركة النقد والتفرقة

بينه وبين النصوص المفردة كشرط لقراءة النقد العربي قراءة صحيحة . .
 وهناك شرط آخر وهو وجوب التخلص من الأفكار المسبقة عن هذا
 النقد . ولقد كان الإخلال بهذا الشرط - مثل سابقه - عاملاً على وقوع
 الدارسين المعاصرين في كثير من الأخطاء ، بل لقد عمل على إخفاء
 الحقيقة التي كانت تكشف عن نفسها - أحياناً - لبعض هؤلاء
 الدارسين .

وعلى سبيل المثال ، فإن سيطرة الفكرة القائلة بتعصب النقد القديم
 ضد شعر المحدثين على بعض الدارسين جعلتهم يفهمون بعض النصوص
 على أساسها دون أن يكون لهذه النصوص صلة بالقضية ، وإلا فأى
 تعصب يحمله وصف أبي عمرو للإسلاميين بأنهم «محدثون» ، وأى
 تعصب يحمله قول إسحاق - وهو الشاعر المحدث - لأبي تمام «إنك
 تَكْفِيُّ على نفسك» ، ثم أى تعصب ضد شعر المحدثين - من الوجهة
 الفنية - يحمله عدم استشهاد اللغويين في ميدان النحو واللغة بشعر
 المتأخرين ؟ ولقد وصلت سيطرة هذه الفكرة عند البعض إلى حد
 حملهم على بتر النصوص والوقوف بها عند النقطة التي تكفل له تأييد
 فكرته . . وهذا ما فعله الدكتور هدارة في إغفاله لبقية الخبر المروى عن
 تعصب أبي رياش القيسي ضد المحدثين خاصة البحترى وأبا تمام ، هذه
 البقية التي تقول : إن أبا رياش سمع شعر البحترى وأعجب به وعرف
 صاحبه ورجع عن الخط منه بعد ذلك . بل لقد وصل الأمر بالبعض إلى

حد تجاهل دلالة النص نهائياً واعتبار هذه الدلالة من قبيل الشذوذ ، وهذا ما نلمحه في وقوف طه إبراهيم أمم نص الأصمعي في تعضيله لبشار على مروان مكثياً بالاستعراب والتعجب ، لأن الأصمعي لغوي ، واللغويون جميعاً - فيما يقول - (كانوا يتعصبون للقدماء على المحدثين ، ولمن هم على طريقة القدماء) ، والأصمعي نفسه - في رأيه - (من الذين بعدت بهم العصبية في ذلك) .

ورغم وضوح النص وبجائه قاطعاً في الدلالة على تفضيل واحد من رواد الجديد على واحد من التمسكين بالأسلوب القديم ، إلا أن سيطرة فكرة تعصب اللغويين لمقدم جعلت الدارس يتغافل عن المدلول الحقيقي للنص مكثياً بإظهار تعجبه ، وفي هذا التعجب نفسه تكمن المشكلة التي تتمثل في التناقض بين ما أشيع عن ذلك الفريق من النقاد من معاداة شعر المحدثين وبين نصوص من النوع الذي وقف أمامه طه إبراهيم ، وكذلك بين ما أشيع عنهم من الحض على اتباع القديم وبين ما هو معروف من مهاجمته لأدنى صور هذا الاتباع ، وهذا ما دفع البعض إلى القول بأن النقد العربي الخالص قد وضع الشعراء والنقاد جميعاً في «مأزق» ، وذلك بسبب إلزامه للمحدث بمجاراة القدماء في كل شيء - كما هو الشائع - ومقاومته في نفس الوقت لكل صور التوافق مع القدماء في المعاني والأساليب مما قد يقع الشاعر المحدث فيه أحياناً . وهكذا تقف الفكرة المسقة ، والحائضة في نفس الوقت ، حائلاً

دون تبين الحقيقة بل دون تقلبها عند انكشافها ، وعاملاً أيضاً على تصور الموقف على غير حقيقته

(جـ) الفهم التاريخي للنصوص :

ومن الشروط المطلوبة لقراءة النقد العربي قراءة صحيحة الفهم التاريخي للنصوص ، أعني فهمها في إطار عصرها بما يوضح حقيقة المراد منها ، وقد ساهم الإخلال بهذا الشرط أيضاً في فهم بعض النصوص على أنها تعنى الغرض من شعر المحدثين ، وهناك نصاب بالذات أسوأ فهمها وهما : النص المنسوب إلى أبي عمرو في وصفه لشعر المحدثين بالتفاوت ، وهو ما عناه بقوله « ليس النخط واحداً » . والنص المنسوب إلى ابن الأعرابي في وصف شعر المحدثين بسرعة زوال الأثر ، وتشبيهه له بالريحان الذي يشم يوماً ثم يذوى فيرمى به ، على حين أن أشعار القدماء تشبه المسك الذي يزداد طيباً بتحريكه .

ومن الواجب النظر إلى هاتين الصفتين في إطار العصر الذي صدرتا فيه ، ولم تكن صفة تفاوت الشعر بين الجودة والرداءة ، أو الجزالة واللبونة صفة خطيرة في نظر أولئك النقاد الذين صدرت عنهم ، يؤيد هذا إجماعهم على اتصاف شعر النابغة الجعدي بهذه الصفة ، وقد عبروا عن ذلك بقولهم عنه إنه (صاحب خلقان ، عنده مطرف بألف وخلق بدرهم) . هذا ما حكاه الأصمعي عن بعضهم ، وقد عزاه مرة أخرى

إلى الفرزدق ، ورواه مرة ثالثة عن أبي عمرو عن الفرزدق ، ويشرح الأصمعي معنى ذلك الحكم : فبينما كان النابغة (في كلام أسهل من الزلال وأشد من الصخر ، إذ لَانَ فذهب) ، وهم ينقلون عن محمد بن سلام قوله (كان النابغة مختلف الشعر) ويذكر ابن سلام أن الأصمعي كان يعجب من النابغة بهذه الصفة (ويمدحه بها وينسبه إلى قلة التكلف فيقول : عنده خمار بواف ومطرف بآلاف) . ويقول ابن قتيبة : أراد العلماء بهذا (أن في شعره تفاوتاً ، فبعضه جد مبرز وبعضه ردىء ساقط) . وقد وصف الأصمعي شعر أبي العتاهية بأنه (كساحة الملوك يقع فيها الخزف والنوى والذهب) وقد فسرت هذه الصفة بأنها تعنى عدم التكلف ، وهو ما كان يعجب الأصمعي .

وإذا كانت هذه الصفة لم تتسبب في رفض شعر النابغة ، وإذا كانت محلاً للتقدير عند رجل كالأصمعي ، الذي جعلها من صفات الشعر المطبوع ، فإن بإمكاننا القول - من زاوية تاريخية - إن إطلاقها على أشعار المحدثين لم يكن يعنى رفض تلك الأشعار جملة أو التعصب ضدها .

والوصف بالروعة في الظاهر ، والأثر المؤقت يحدته الشعر ثم لا يلبث أن يتلاشى هذا الوصف قديم هو الآخر ، وقد عرف به شعر واحد من قُبل شعرهم ، وأعني ذا الرُمة . فيحكى أبو عبيدة عن جرير وصفه لشعر ذي الرمة بأنه (نقط عروس وأبعاد ظباء) ويذكر محمد بن سلام عن أبي

عمرو بن العلاء أنه كان يقول (إنما شعر ذى الرمة نقط عروس تضمحل عن قليل ، وأبعار ظباء لها مشم في أول شمسها ثم تعود إلى أرواح البحر) ويشرح الأصمعي معنى هذا القول بأن (شعر ذى الرمة حلو أول ما تسمعه ، فإذا أكثر إنشاده ضعف ، ولم يكن له حسن) وهذا هو مضمون النقد الذى وجهه ابن الأعرابي إلى شعر المحدثين ، أعنى الوصف بسرعة زوال الأثر الذى يحدثه الشعر .

وإذا لم تكن تلك الصفة من الخطورة - فى نظرهم - بالدرجة التى يسقط معها شاعر كذى الرمة فن الطبيعى أيضاً أن لا يفهم منها أنها تعنى الرفض لشعر المحدثين .

ومما يجب أن يفهم فى ضوء الإطار التاريخي تلك النصوص التى تشير إلى رفض أولئك النقاد رواية شعر المحدثين ، ومع قلة هذه النصوص ، ومع انصبابها على رواية الشعر بغرض الاستشهاد به نحوياً ولغوياً ، وهو الغرض الذى لم يكن شعر المحدثين ، صالحاً له ، ومع ما تأكد من عدم تمسك الرواة فعلياً بالإقلاع عن رواية أشعار المحدثين فإن طبيعة مهمة الرواة تجعل من عدم روايتهم لأشعار معاصريهم - إن صح ذلك - مسألة أبعد ما تكون عن التعصب والازدراء لتلك الأشعار . إذ كان من المفروض فى الرواية أن يقدم من الأشعار ما ليس فى أيدي الناس ، وبالتالي لم يكن يستشعر كبير فضل فى حفظ شعر المحدثين ، لأنه متداول موجود فى أيدي الناس وهذا ما يوضحه موقف المبرد من البحترى .

وقد أبدى بعض الدارسين دهشته من خلو كتاب «الكامل» للمبرد من شعر البحترى مع ما كان بينهما من صداقة ، في الوقت الذى أورد فيه المبرد كثيراً من أشعار أنى تمام فى هذا الكتاب . وتستطيع الظفر بالإجابة على لسان المبرد نفسه ، فقد ذكر أبو الحسن الأخفش أنه سمع المبرد يقول : (مارأيت أشعر من هذا الرجل - يعنى البحترى - لولا أنه ينشدنى كما ينشدكم للملأت كئيبى من أمالى شعره) .

ولاشك أن مثل هذه التزعة من الإحساس بعدم قيمة الرواية لأشعار المعاصرين كانت وراء إقلاع الرواة عن إملاء أرواية شعر الشعراء من أبناء جيلهم ، كما كانت - إلى جانب عوامل أخرى - وراء بعض العبارات التى تعلق من شأن القدم فى ذاته . والتى تصف هذا الشاعر أو ذاك بالتفوق والامتياز لولا تأخر زمانه ، كالذى سمعناه من أبى عمرو خاصاً بالأخطل ، ومن الأصمعى خاصاً بابن هرمة ، ومن ابن الأعرابى خاصاً بالقديم عموماً . فثل هذه العبارات يمكن فهمها من زاوية معينة على أساس الرغبة فى إسباغ بعض القيمة على الشعر القديم الذى تبنى المكانة العلمية - ومن ثم المكانة الاجتماعية للرواية - على أساس ما يحفظ منه .

المهمة المزدوجة لأوائل النقاد

بقى نوع آخر من النصوص التي تشير إلى رفض أشعار المحدثين في مجال معين هو مجال الاستشهاد اللغوي والنحوي ، يمثلها ما رواه الأصمعي من عدم احتجاج أبي عمرو بأشعار الإسلاميين ، كما تمثلها صفة «خاتم الشعراء» التي كانت تتردد على ألسنة اللغويين والنحاة مشيرة إلى توقف الاحتجاج في هذا الميدان عند أجيال معينة . ومع وضوح القصد تماماً في مثل هذه العبارات فإن الدارسين المحدثين قد خلطوا بين استبعاد الشعر في الميدان المشار إليه وبين رفضه لاعتبارات فنية ، وفسروا ما تحمله هذه النصوص على أنه من قبيل التعصب .

وإنما أوقعهم في هذا الخطأ عدم تبيينهم للمهمة المزدوجة التي كان على أوائل النقاد الاضطلاع بها من ناحية ، وعدم تبيين مقتضيات ما عرف بحركة التنقية اللغوية من ناحية أخرى . ذلك أن النقاد الذين اضطلعوا بمهمة تقويم الشعر وتوجيهه في تلك الفترة كانوا يقومون بمهمة ذات وجهين ، لقد كان على أولئك العلماء - مثل أبي عمرو وخلفه وأبي عبيدة والأصمعي - القيام بدور النقاد في الوقت الذي يباشرون فيه مهام حركة التنقية اللغوية ، والتي كانت تنظر إلى نماذجها نظرة تختلف

عن نظرة الناقد العادى المتكفل بمهمة التحليل والتقييم أو المحكم . . .
 إلخ مراعيًا كل عناصر العمل الفنى وحاملاً عيوبه على محاسنه بحيث
 يصدر عليه حكماً كلياً يمثل حصيلة جمع المحاسن إلى العيوب .
 وكان عليهم - حين يتصدون للعمل اللغوى أن يرفضوا كل
 ما لا يصلح للاحتجاج فى هذا المجال ، وكان كثير مما يرفضونه يتسنى إلى
 العصور المتأخرة ، وذلك بحكم انعدام شرط النقاء اللغوى فى شعر
 المتأخرين ، وهذه هى حقيقة ما يبدو فى عبارات بعض أولئك العلماء
 من تنويه بالشعر القديم دون الحديث ، كالتصريح أحياناً بأن الأول
 أساس الاحتجاج ، فلم يكن وراء تلك العبارات والتصريحات سوى
 مبدأ واحد هو أن الشعر القديم يمثل المادة الصالحة للاحتجاج اللغوى
 والنحوى ، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك وجه لتفضيل شعر على شعر إلا
 على أساس الجودة ، بصرف النظر عن مقاييسها - التى لم يكن من بينها
 قدم الشعر .

وقد عرفنا أنهم نصوا من بين من لا يحتج بلغتهم على خمسة شعراء
 بالذات ، ثلاثة من الجاهليين واثنين من الإسلاميين ؛ ونقصد عدى
 ابن زيد وأبى دؤاد الإيادى وأمىة بن أبى الصلت والطرمّاح والكُمَيْت .
 غير أن أولئك الشعراء كانوا محلاً للتقدير من جانب علماء الشعر حين
 يتجاوز الحديث أمور اللغة والنحو .

فابن سلام يقول عن عدى : (وله أربع قصائد عرر روائع

ميرزات ، وله بعدهن شعر حسن) ويحكى عن يونس قوله - وقد تمثل
 بيته :

أَيُّهَا الشَّامِتُ المَعِيرُ بالدَّهْدِ بِرِ الأَنْتِ المَبْرَأِ المَوْفُورُ
 فقال يونس : (لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلا هذه أو مثل
 هذه) .

ويورد ابن قتيبة في حديثه عن عدى ما وصفه به ابن سلام من أن له
 أربع قصائد غرراً ، ثم أورد منها جميعاً في كتابه واستجاد له قوله :
 قَدْ يُدْرِكُ المَبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ وَالأَخِيرُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الحَرِيصِ
 وهو البيت الذى ذكر المبرد أن القطامى أخذ منه قوله :
 قَدْ يُدْرِكُ المَتَأَمِّيَ بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
 كما يستجيد ابن قتيبة له قولاً في وصف السقاة ، ويسجل له السبق
 في شعر قاله لأخيه يحذره من دخول أرض النعمان .

وفي «حلبة المحاضرة» يورد الحاتمي أمثلة لأحسن ما قيل في رد
 الشامتين ، ويذكر منها بيت عدى بن زيد : (أيها الشامت . . .
 «البيت السابق») ويسجل أنه صاحب واحد من الأمثال الشاردة في
 طلب التوفيق من الله ، وكذلك في الوعظ بالأيام ، وفي الحض على
 المجازاة عن الخير والشر كل بمثله ، ويستشهد المبرد - كما في الحلبة -
 بيت عدى :

قد يدرك المبطئ من حظه والخير قد يسبق جهد الحريص

للأبيات المشتملة على مثلين ، ويورد الحاتمي قول عدى :
 لَوْ بَغِيْرَ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِقٌ كُنْتُ كَالْعَصَانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي
 على أنه من أحسن ما قيل في مجيء الإساءة من قبلي من لا تُتَوَقَّعُ
 إساءته . . . أما الأصمعي فكان يقول : إنه ما رأى كلاماً أشبه بالسنة
 من قول عدى بن زيد :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَدٍ
 أما عن أبي دؤاد فإن ابن قتيبة يورد قول الحطيثة « الذي استشهد به
 القاضي الجرجاني » من أن أشعر الناس هو أبو دؤاد في قوله : (لا أَعُدُّ
 الإِقْتَارَ عُدْمًا . . . إلخ) ويقول ابن قتيبة : وهذه القصيدة أجود شعره ،
 ويختار بعضها ويورده ، كما يسجل له السبق إلى قول له في حياية الجار
 والمحافظة على عهده ، أخذه منه الحُطَيْثَةُ . وأهم من هذا يورد قول
 الأصمعي فيه : إنه أحد نُعَاتِ الخيل المجيدين ، وهم ثلاثة :
 أبو دؤاد . . . وطُفَيْلٍ وَالتَّابِغَةُ الجَعْدِي ، كما يسجل له الحاتمي في حلية
 المحاضرة السبق إلى معنى في وصف الفرس أخذه منه زهير ، وفي
 (المَوْشِح) خبر له دلالة ، ويذهب إلى أن خلفاً الأحمر كان ينحل
 شعره أبا دؤاد الإيادي ، وأن في أبدى أهل الكوفة أربعين قصيدة باسم
 أبي دؤاد صنعها خلف الأحمر ، واستؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو :
 هل كان خلف ينحل شعره شاعراً لا قيمة له ، أعنى شاعراً لم يكن هناك
 طلب على شعره ، ولا أحد يرغب في سماعه ؟ لا شك أن المترلة الشعرية

لأبي دؤاد هي التي جعلت رجلاً مثل خلف يختار هذا الشاعر بالذات يستند إليه قصائده المنحولة .

وأما عن أمية بن أبي الصلت ، ففي الأغاني خبر عن عمر بن شبة (قال أبو عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ، ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت) وفي خبر آخر عن يحيى بن محمد (قال الكمي : أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال) ويصنف الأصمعي شعر أمية ضمن أشعار من ذهبوا في اتجاه واحد ، فيرى أن عامة شعر أمية في ذكر الآخرة كما أن عامة شعر عنترة ذهبت في الحرب ، وعامة شعر عمر بن أبي ربيعة ذهبت في ذكر الشباب ، وفي الأغاني أيضاً أن سفيان بن عيينة استشهد بشعر أمية في معنى أن ثناء المادح على المدحوك كاف في تذكيره بحاجته ، وذلك في أثناء شرح مضمون دعاء للرسول ، وكيف أن صيغة الدعاء جاءت في صورة الذكر .

ولقد ترجم ابن قتيبة - في الشعر والشعراء - للكمي بن زيد ، وتحدث عن شعره وكثرة سرِّه ، ولكنه ذكر بعض المختار من شعره ، فأورد له قطعة من قصيدة بائية في النبي ، وبيتاً في هشام بن عبد الملك و قطعة أخرى من جيد شعره ، ويصفه صاحب الأغاني بأنه (شاعر مقدم عالم بلغات العرب خبير بأيامها) ، وفي الأغاني أيضاً خبر عن مناظرة بين الكمي وحامد الرواية وأن الكمي غلبه في العلم بالشعر واللغة والعرب

والرواية . وعرض الكميث شعراً له على الفرزدق ، يستثيره في إظهاره إن كان جيداً أو ستره إن كان زديئاً ، فأمره الفرزدق - بعد أن سمع الشعر - بإظهار شعره قائلاً (أنت أشعر من مضى وأشعر من بقى) ويذكر حماد مصدر علم الكميث وأنه كانت له جدتان أدركتا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتجبرانه بأخبار الناس في الجاهلية ، فإذا شك في شعر أو خير عرضه عليها فُتخِّيراهُ عنه ، فمن هناك كان علمه .

وأما عن الطرماح بن حكيم فإبهم يحكون أن الأصمعي كان يستجيد قوله في وصف الظلم :

مُجْتَابُ شَمَلَةٍ بَرَّجِدٍ لَسْرَاتِهِ قَدْرًا وَأَسْلَمَ مَا سِوَاهُ الْبَرْحُدُ
وَفِي (حَلِيَةِ الْمَخَاضَةِ) بَجْدِ هَذَا الْبَيْتِ ضَمِنَ عِدَدٌ مِنَ التَّشْبِيهَاتِ

العقم - وهي التي لم يُسبق أصحابها إليها ولم يلحقهم فيها أحد لحرقاً محسناً - وهي التشبيهات التي اختارها أبو عمرو وخلف ويونس ، ضمن عدد من تشبيهات الشعراء منهم عنزة وعدى بن الرقاع والراعي والتابفة ودو الرمة وغيرهم . كذلك يذكر ابن قتيبة تفضيل الأصمعي لبيته في وصف الثور ، وإلى نفس الشيء ذهب الخاتمي في « حلية المخاضة »

حيث يذكر تفضيل الأصمعي لبيت الكميث :

يَبْدُو وَتُضَمِّرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ سَيْفٌ عَلَى شَرْفٍ يُسَلُّ وَيُعْمَدُ

على قول التابفة :

مِنْ وَخْتِ وَحِجْرَةِ مُوشَى أَكَاغَعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّبِغْلِ الْبَرِيدِ

فقال الأصمعي : إن الطرماح (أحق بهذا المعنى منه لأنه أخذه وجوده وزاد عليه ، وإن كان النابغة افترعه) .
وفي هذه الأخبار - على قلتها - كفاية ، فكثير منها صادر عن الأصمعي ، ويعترف فيها بالشاعرية والتفوق للشعراء الذين رفض الاحتجاج بشعرهم .

الأسباب الخاصة لعدم الاحتجاج ببعض الأشعار

وليس لنا أن نبحث عن علة قبولهم - على المستوى الفني - لأشعار من قالوا إنهم لا يحتجون بهم لغوياً ، فالوقف الطبيعي الذي لا يحتاج إلى تعليل هو موقف القبول للشعر الجيد ، لكن ما يحتاج حقاً إلى البحث هو السبب الذي من أجله رفض الاحتجاج بأولئك الشعراء ، خاصة أنهم جميعاً يتمتعون بميزة القدم ، إذ كان من بينهم ثلاثة من الجاهليين واثان من الإسلاميين .

وبإمكاننا - حين نتبع هذه العلة - نلاحظ أن هناك نوعين من الاعتبارات تقترن برفض الاحتجاج بأشعار هذه المجموعة من الشعراء :

١ - اعتبارات مكانية : وذلك واضح في قولهم عن عدى : إنه كان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف ، أو قولهم : إنه قروى ، وأمّية بن أبي الصلت نفسه كان من شعراء القرى العربية - كما رتبته ابن سلام - كان من الطائف ، ويقول ابن سلام « وأهل الطائف في طرف » يعني في مكان ناء بعيد . ويتضح الاعتبار المكاني أيضاً فيما وصفوا به الكميث والظرماع من أنها كانا من أهل السواد ، ويقول الأصمعي عن الكميث

إنه نشأ بالكوفة ، فلا يكون مثل أهل البدو ومن لم يكن من أهل الحضرة . وهو واضح كذلك في حالة الطرماح مما حكاه عنه أبو عمرو بن العلاء وأنه رآه بسواد الكوفة ، وهو الخبر الذي يؤكد شعبة بن الحجاج ، كذلك يورد القاضي الجرجاني في الوساطة قول الأصمعي عن الكميث ، إنه (جرمقاني) من جرميق الشام لا يحتاج بشعره هذا ونذكر أنه مع قبول الأصمعي الاحتجاج بشعر ذي الرمة ، إلا أنه كان يلاحظ عليه بعض الظواهر المولدة - كما يقول (فك) - ورأى أن شعره لا يشبه شعر العرب باستثناء قصيدة واحدة ، وأن هذه السمات ناشئة من إقامة ذي الرمة في أرض (السواد) الخصبة ، أو كما يقول الأصمعي في عرض تصويري (إن ذا الرمة أكل البقل والملوح في حوانيت البقالين حتى بشم) .

٢ - اعتبار ثقافي خاص : وهذا الاعتبار واضح أيضاً من قولهم عن عدى بن زيد : إنه كان نصرانياً من عباد الحيرة قد قرأ الكتب ، وأن الوفود كانت تفد إلى الملوك بالحيرة ، فكان عدى يسمع لغاتهم فيدخلها في شعره . ويذكرون عن أمية بن أبي الصلت أنه كان قد شام أهل الكتاب ، وقرأ الكتب المتقدمة وكان يحكى في شعره قصص الأنبياء ، وفي كتاب (الأغاني) أنه قرأ كتاب الله تعالى الأول . ويقولون عن الكميث إنه كان معلماً بالكوفة وإنه تعلم الغريب وتعلم النحو ، وأنه كان - هو والطرماح - يسألان رويةً عن الغريب ، ويروى أبو عمرو بن

العلاء أنه رأى الطرماح وهو يكتب الفاظ النبيط التي اعترف بأنه يعربها ويدخلها في شعره .

على أن أياً من هذين الاعتبارين لم يكن مقصوداً لذاته ، وإنما من حيث ما يترتب عليه من اتصاف أشعار أولئك الشعراء بسمات خاصة لاحظها العلماء وسجلوها ، وهي سمات أوجدت نوعاً من المباينة بين لغات أولئك الشعراء ولغات غيرهم : ويمكن ملاحظة ذلك من قولهم عن عدى بن زيد وعن أبي دؤاد : إن ألفاظها ليست بنجدية ، وقولهم عن عدى : إنه لان لسانه وسهل منطقه ، وأنه كان يدخل لغات الملوك لقوافدين في شعره . وكذلك حديثهم عن مجموعة من المآخذ سجلت على أبي دؤاد ، كما سجلوا على أمية بن أبي الصلت أنه كان يأتي بالفاظ كثيرة لا يعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة . . . ويمثلون لذلك تسمية السماء باسم (صَاقُورَة) و(حَاقُورَة) . . . إلخ وتسمية الله عز وجل (السَّلْطَيْط) وتسمية الثغر (الثُّغْرور) ، وهي الظواهر التي قال عنها بن قتيبة إنها أشياء منكورة ، وعلل بها عدم احتجاج العلماء بشعر أمية في صص أصرح مما في (الشعر والشعراء) نسبتها إليه رواية في (الأغاني) . كذلك لاحظ العلماء على شعر كل من الكميث بن زيد الأسدي والطرماح بن حكيم عدداً من السمات ، فيأخذون عليها أنها كانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهماه ، وأنها كانا يدخلان الغريب في أشعارهم ، ويحكون قول الكميث : إنه لا يقبل أن يقول من الشعر ما يجيء مستويًا

سهلاً ، ولا يعبأ إلا بما يستطيع أن يدخل فيه شيئاً من العويص ، ثم يذكرون قوله : إنه يصف الأشياء التي لم يرها وإنما وُصفت له فحسب ، فهو يصفها على السماع ، وكان هذا الاعتراف من جانبه تبريراً لما لاحظته عليه معاصره ذو الرمة من عدم الدقة في الوصف بسبب عدم الدقة في استعمال الألفاظ . وتكمل الروايات الأخرى هذه الصورة ، حيث تذكر أن ذا الرمة - أو غيره في روايات أخرى - سجل عليه عدم المناسبة في جمعه بين كلمتي « الأنس » - أو الدَّل - و« الشَّنْب » .

وليس هنا مكان إحصاء الأخطاء ، وحسبنا أن نسجل السمات العامة التي كان من شأنها أن تبعد اللغويين عن الاعتداد بشعر الشاعر في احتجاجهم اللغوي ، وحسبنا أن نذكر أنهم رأوا كل علم الكميّ ولغته قائمان على التعلم ، وليس على النشأة العربية أو التبدي الذي قد يكون شفيحاً في مثل هذه الحالة .

ويشارك الكميّ الطرماح في معظم الخصائص السابقة من تعلم النحو واللغة تعليماً . وفي إدخال الغريب في شعره دون فهمه ، ولكنه اتسم بصفة أخرى هي إدخال الألفاظ الأجنبية - والنبطية بالذات - في شعره ، فألى جانب الثقافة اللغوية المكتسبة - على خلاف المطلوب في لغة من يحتج بشعرهم - فإنه أضاف إليها ألفاظاً ليست عربية أصلاً . ونحن إنما نركز على الاعتبارين السابقين : الاعتبار المكاني ، والاعتبار المتعلق باكتساب الشاعر نوع من الثقافة الغربية على البيئة

البدوية المثالية ، وذلك لأننا نرى أن وجود هذين العاملين أو انعدامهما هو الذى كان يترتب عليه رفض أو قبول الاحتجاج بالشاعر ، وليس غير هذين العاملين كان يتحكم فى هذه المسألة ، حتى أصل الشاعر وعدم انتسابه إلى العرب ، لم يكن ليقدر فى شرعية الاحتجاج بلغته ، إذا توفّر له شرط البعد عن كل المؤثرات الأجنبية وشرط البيئة النقية اللقطة ، فكما قلت من قبل ، كانت جميع الاعتبارات لا تقصد لذاتها بل لما يترتب عليها من احتمال عدم خلوص لغة الشاعر وعدم نقاء عريته . وينقل السيوطى فى (المزهر) عن الفارابى فى أول كتاب (الألفاظ والحروف) قوله : (والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنها أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد : فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم أتكل فى العريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاة وغان وأباد . لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصرلى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة بمجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا

بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان البمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم - حين ابتدأوا يتقلون لغة العرب - قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسلت ألسنتهم .

ومن هذا النص يتضح أن شرط المكان كان موضع الاعتبار على أساس أنه وسيلة لعدم الخضوع للمؤثرات الأجنبية التي يمكن أن يتعرض لها سكان المدن والأقاليم المتطرفة ، ومن الواضح أن الإقامة في البادية - في ذاتها - لا تسوغ الاستشهاد بشعر الشاعر ، ما لم تكن إقامته في مكان بعيد عن احتمالات الاختلاط والفساد ، فهم لم يأخذوا - كما يقول الفارابي - (عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم) فلا سكنى المدن ، ولا الإقامة في الصحراء - في ذاتها - هما الفاصل في مسألة الاحتجاج بشعر الشاعر من عدمه . وإنما الفاصل في ذلك هو مدى تعرض الشاعر للمؤثرات الأجنبية التي يمكن أن تبدو ظواهرها في لغته ، يقول ابن جني إن (علة امتناع الأخذ عن أهل المدر كما يؤخذ عن أهل الوبر ، ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد ، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم لم يعرض للغتهم شيء من الفساد لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ، وكذلك لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من الخلل

والفساد لوجب رفض لغتها) .

كان العامل الحاسم في اختيار الشعر ، عند قيام الحركة الخاصة بجمع لترات ، هو صلاحيته للغرض الذي يُختار من أجله .

من هنا كانت ميزة الشعر القديم - في ميدان الاحتجاج اللغوي - في نظرهم بصرف النظر عن المستوى الفني ، تلك الميزة أو الخاصة ، هي توافر شرط النقاء اللغوي في ذلك الشعر ، وبالذات في شعر قبائل بعيها نتيجة لوجود الشرطين السابقين : شرط المكان المنعزل عن المؤثرات لأجنبية ، وعدم التعرض لألوان الثقافة غير العربية تعرضاً من شأنه أن يؤثر على لغتهم ، ولقد وجدت قبائل من كانت تعيش في أطراف الجزيرة حيث كانت عرضة للاختلاط وفساد اللغة - والفساد هنا يعني دخول عناصر غير عربية - وعلى العور استبعدت تلك القبائل ، على نحو ما رأينا في النص الذي نقله السيوطي عن القرابي ، واقتصروا على شعر القبائل التي تركت بعيداً عن كل احتمالات الاختلاط والفساد ، لا لأن شعر هذه القبائل أقل في المستوى الفني - فهذه مسألة لم يناقشوها عند بحث مسألة مَنْ يمكن الاحتجاج بلغتهم - ولكن لأنه لا يتمتع بالشرط الذي تطلبته حركة التنقية اللغوية .

مصادر الاحتجاج اللغوي والنحوي :

ولقد كان ذلك المسك طبيعياً ولا يحمل أى سمة من سمات

الرجعية - كما يحاول (فك) أن يصف تلك الحركة ، ذلك أن القائلين عليها ظلوا على الوفاء لمبدئهم وهدفهم ، ولقد كان الهدف - كما ذكرت محاولة جمع أو وضع صورة للعربية كأنتي ما تكون ، ولقد أجمعوا على أن مصادرهم إنما هي الكلام الموثوق بفصاحته (فشمل كلام الله تعالى - وهو القرآن - وكلام نبيه ﷺ ، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين ، نظماً ونثراً ، عن . لم أوكافر ، فهذه ثلاثة أنواع لا بد فيها من الثبوت) .

(أما القرآن ، فكل ما وُجد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواتراً أم شاذاً ، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم يخالف قياساً معروفاً) .

ويتضح الوفاء لمبدئهم من أنهم لم يستشهدوا - في اللغة - بكل كلام الرسول ورأوا أن كلامه إنما يستدل منه (بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروى ، وذلك نادر جداً ، إنما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضاً ، فإن غالب الأحاديث مروى بالمعنى وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها) وهكذا لم تستثن أحاديث الرسول ، ولم تعف من أي شرط من شروط حركة التنقية اللغوية ، فأى شك في بعض رواة الحديث كاف لأن يصبح الحديث خارج دائرة الكلام الذي يستشهد به في اللغة . ولقد كان ذلك مسلك متقدمي اللغويين والنحاة كأبي عمرو ابن العلاء وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين ،

والكسافي والفرّاء وعلي بن مبارك لأحمر وهشام الضرير من أئمة
لكوفيين ، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين .

وكان ضيقاً لا يستشئ كلام العرب - وهو المصدر الثالث والأهم
عند النحويين ، لأنهم احتجوا به على صحة ألفاظ القرآن - من نفس
قاعدة ، قرأوا لامتناع عن الاحتجاج بكل ما يحتمل فيه وجود شيء
من الفساد والاختلاط ، ولم يكن عنصر الزمن هو الفيصل في ذلك ،
بل كان لشخص المتقدما الذكرهما الأساس ، أعني المكان البعيد عن
التأثرات الخارجية ، والثقافة العربية الخالصة ، فلما انعدم الشرطان في
سعره مثل عدى س ريد وأبي دؤاد وأمّية بن أبي الصلت - وهم
جاهليون ولم بعدما كذلك في شاعرين إسلاميين كالطرماح والكميت ،
رفضوا الاحتجاج بشعرهم أيضاً ، فلما فشا الاختلاط وانتشر اللحن
وأصبحت العربية تؤخذ تعلماً واكتساباً ، لا سليقة وفطرة ، وصار ذلك
هو لشائع بين معظم الشعراء ، وضع اللعوبون لأنفسهم حداً زمياً
سوفموا عنده عن الاحتجاج بأشعار لشعراء الذين يتأخرون عنه ، ولم
يكن الحد الزمني يحمل دلالة زمنية بالمعنى المفهوم للتمييز بين قديم
ومحدث ، وإنما كان يحمل - في حقيقة الأمر - دلالة مكانية وحضارية
معينة ، فهم قد رأوا أن الزمن المتأخر ازداد فيه الاختلاط بين الشعوب
اختلفة في المملكة الإسلامية بحيث انعدم الشرطان السابقان ، وبالتالي
أصبح التهاون في شرط العنصر الزمني تهاوناً في شرط التقاء اللغوي الذي

تطلبوه واشترطوه فيمن يمتح بلغاتهم ، وذلك دون أن يلتفتوا - في هذا المجال بالذات - إلى المستوى الفني للشعراء ، ودون أن ينصوا حقيقة على أن مَنْ رفضوا الاحتجاج بشعارهم كانوا أدنى في درجة الشاعرية ممن قبلوا الاحتجاج بهم . يقول الأستاذ الدكتور يوسف خليف : (وقيام الدولة العباسية واستقرار الأوضاع في المجتمع الإسلامي الجديد ، يبدأ العصر اللغوي الثالث من حوالى الثلث الثانى من القرن الثانى للهجرة ، إلى نهاية هذا القرن في هذا العصر اللغوي الثالث كانت بواكير الحياة العقلية قد أخذت في الظهور وكانت حركة التنقية اللغوية قد بلغت أشدها بعد أن أصبحت الفصاحة أمراً غير طبيعي في مجتمع انتشرت فيه العناصر الأجنبية وتغلغلت في مختلف ميادينه السياسية والاجتماعية واللغوية والأدبية ، في حين تراجعت العناصر العربية تراجعاً ملحوظاً بالنسبة إلى مراكزها في العصرين السابقين ، وأخذ اللحن في الظهور بصورة واضحة ، ليس فقط في المجتمع العام ، ولكن في المجتمع الأدبي أيضاً ، الأمر الذي دفع علماء اللغة والنحو إلى عدم الاحتجاج بالآثار الأدبية للشعراء المعاصرين مها تبلغ درجة فصاحتهم وسلامتهم اللغوية ، مبالغة منهم في الاحتياط ، وحرصاً على صحة القواعد التي يضعونها والنتائج التي يسجلونها) .

استبعاد شرط الجنس عند الاحتجاج :

ومما هو جدير بالذكر أن حركة التنقية اللغوية لم تقم وزناً لاعتبارات الجنس في اختيار شواهدا وأمثلتها ، فحينما توافرت شروط النقاء ، استمد أصحاب تلك الحركة شواهدهم دون أن يقيموا اعتباراً لجنس الشاعر ، وكثيرون أولئك الشعراء الذين كانوا من أبناء الإماء ، أو كانوا من أصول أعجمية صرفة ، ومع ذلك قبلوا في مجال الاحتجاج اللغوي مثل : عبد بنى الحسحاس وزياذ الأعجم وأبى دلالة وأبى عطاء السندی .

ولا داعي للإطالة في هذا الصدد ، وحسبنا أن نذكر أن سيويه قد استشهد بشعر سحيم عبد بنى الحسحاس ، واستشهد كذلك بشعر ابن ميادة - أخذ من ختموا بهم الشعراء - وكان هذا الأخير يزعم أن أمه فارسية .

وهكذا لم يكن هناك اعتبار زماني بالمعنى المفهوم ، ولا حتى اعتبار مكاني لذاته يحول دون الاحتجاج بالشعر الحديث ، وإنما وقفوا عند الشروط التي تتيح لهم الحصول على شواهد اللغة النقية ونماذجها ، وهي الشروط التي كانت موضع احترام الجميع .

وكأنما كان هناك ما يمكن تسميته بالطبقات اللغوية - أو المستويات اللغوية للشعراء - تقوم على درجة الاطمئنان إلى الاحتجاج بلغة

الشاعر، بصرف النظر عن مستواه الفني، وهذا واضح مما قاله الأصمعي (قال... وابن هرمة ثبت فصيح... قال: وابن أذينة ثبت في طبقة ابن هرمة، وهو دونه في الشعر، وقد كان مالك يروى عنه الفقه) وكثيراً ما كانت الصفات التي يفهم منها الغرض من الشاعر إنما تعني رداءة لغته، بما يخل بشرط صلاحيتها للاحتجاج، قال أبو حاتم عن الأصمعي: (رأيت يظعن في الأقيسر «شاعر إسلامي أموي» ولم يلتفت إلى شعره. قال: ولا يقال إلا «رجل شرطي»، فقلت: قال الأقيسر:

إِنَّمَا نَشْرَبُ مِنْ أَمْوَالِنَا فَاسْأَلُوا الشَّرْطِيَّ مَا هَذَا الْغَضَبُ

فقال: (ذاك مولد) وكان وصف الشاعر- في حديث الأصمعي- بأنه «مولد» إنما كان يعني انتماءه إلى الفئة التي لا يحتج بلغتها، لا الفئة الرديئة فنياً، وذلك ما يكمل إيضاحه وصف الأصمعي لمروان بأنه (كان مولدًا، ولم يكن له علم باللغة). وإن كان هذا لم يمنع من الاحتجاج ببعض أولئك المولدين حينما توافر عنصر الاطمئنان إلى لغتهم.

والواقع أن تلك الحركة، إنما كانت تريد نماذج خالية من الخطأ اللغوي ومن كل عوامل التأثير الأجنبية. وكانت المؤثرات الأجنبية قد ازدادت وتراكمت في ابيثة الحديثة، فبدأ أصحاب حركة التنقية اللغوية- والذين كانوا نقاداً من ناحية أخرى- يتحفظون في قبول نماذج الشعراء الإسلاميين، واضطروا إلى رفض بعضها، لا لأنها متأخرة

زمنياً ، ولكن لأنها فقدت صفة النقاء والخلو من الشوائب الدخيلة ، وبمرور الوقت ، وتزايد احتمال وجود لتأثير الأجنبي في لغات الشعراء اضطرت اللغويون إلى وضع حد زمني - كان محل اختلاف - للفترة التي لا يجوز الاحتجاج بشعر الشعراء المتأخرين بعدها . وكما أوضحت من قبل ، لم يكن المقصود فاصلاً زمنياً بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت للزمن دلالة بالنسبة لعوامل التأثير الأجنبي التي كانت تزايد بمرور الوقت . وهكذا أصبح التقدم في الوقت دليلاً على النقاء اللغوي .

والدليل على أن التقدم الزمني لم يكن مقصوداً لذاته أن اللغويين الذين أشيع عنهم - خطأ - حب القديم والعزوف عن الجديد ، رفضوا الاحتجاج بشعر قبائل بأكملها في الجاهلية ، ولو كان العامل الحاسم هو عمل الوقت حقيقة ، لما كان هناك محل للاستثناء ، لكن ما نقله السيوطي عن الفارابي وابن جني يوضح أن عدد القبائل التي استثنى شعرها من الاحتجاج بالشعر الجاهلي : كان كثيراً ، وكان السبب وراء استثناءها عدم توافر شرط النقاء اللغوي لا غير ، وكان فقدان هذا الشرط نفسه وراء عدم الاحتجاج بشعر الطرماح والكميت من الإسلاميين - الذين قبلوا الاحتجاج بشعرهم - وكان انعدام هذا الشرط أيضاً هو السبب في توقفهم عن الاحتجاج بشعر المحدثين عند فترة معينة ، كان من الصعب بعدها الاطمئنان إلى خلوص لغة الشعراء من المؤثرات الأجنبية .

التقدير الفني للمحدثين المرفوضين لغوياً :

على أن أولئك الشعراء الذين رفض الاحتجاج بأشعارهم على المستوى اللغوي - ومنهم اشعراء المحدثون - كانوا يتمتعون بكل آيات التقدير التي كان يحظى بها الشعراء الآخرون ممن قبلوا لغوياً ، وذلك حين يدبر الناقد ظهره إلى اعتبارات النقاء اللغوي ، ويولي وجهه شطر العناصر الفنية الحقيقية في الشعر. وهذه الحقيقة وحدها هي التي تفسر قبول الاحتجاج بشعر الطرماح والكميت على المستوى البلاغي والأساليب البيانية ، وكذلك الاحتجاج بشعر المحدثين كبشار وأبي نواس في نفس هذه المجالات ، وهي وحدها أيضاً التي تفسر صدور الهجوم ضد الشعر الحديث وصدور الثناء عليه والتأييد به على لسان الشخص الواحد .

فنسمع عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يحمل على المحدثين ، ولا يستشهد بشعرهم ، ثم نعرف أنه كان يفضل بشاراً على الشعراء في عدد من الفنون ، كما كان يجعله ضمن أصحاب الابتداءات الرائعة . ولقد مات بشار بعد أبي عمرو ، ولم يدرك الناقد الكبير أحداً أحدث من بشار فيشيد به ليؤكد لنا اقتناعه بقبول الجديد ، مع اعتذاره عن عدم الاحتجاج به في مجال اللغة لأسباب واضحة ومعروفة . ولكنه ترك ذلك لتلاميذه ومنهم الأصمعي . وتدور في كتب الأدب والنقد قصة الأصمعي مع إسحاق الموصلي وكيف عرض عليه الأخير بيتين له

فاستحسنها على أنها لبعض القدماء ، فلما علم أنها لإسحق قال له :
أفسدتها ، ذلك منتهى تعصب الأصمعي ، غير أن حقيقة المهمة
المزدوجة التي كان يضطلع بها الأصمعي وفريقه من مدرسة أبي عمرو
وغيرهم ، توضح ذلك الموقف ، فكما رفض الأصمعي شعر إسحق حين
علم أنه له ، بعد أن قبله على أنه قديم ، نراه يرفض صراحة - مع علمه
بقدم الشعر - شعر كل من عدى بن زيد وأبي دؤاد الإيادي ، وكثير من
شعر القبائل الجاهلية ، والسبب أن هذه الأشعار لا تصلح للاحتجاج بها
لغويًا ، ويبدو أن الأصمعي كان يريد الانتفاع ببيتي إسحاق في هذا
المجال ، لكنه أسقط في يده عندما علم أنها لشاعر محدث لا تنطبق عليه
شروط النقاء اللغوي ، وهو ما يتضح من قوله لإسحق ، بعد أن علم أن
البيتين له : (أفسدته . . أفسدته) - في بعض الروايات أي أفسدت
الشعر - وإسحاق لم يفسد من الشعر شيئاً ، ولكنه أفسد هدف الأصمعي
في الاحتجاج بالبيتين ، فإذا تجاوز الأمر مسألة اللغة سمعنا من الأصمعي
في شعر إسحاق نقداً موضوعياً مخلصاً يبين له مواطن العيب في صراحة
مع الاعتراف له بالإحسان بصفة عامة . وقد سبق أن أشرنا إلى إعجابه
ببيتين لإسحاق مع أخذه عليه تكرار حرف الحاء فيها كثيراً ، كما نجد في
(الأغاني) إعجاباً لا حدود له من الأصمعي ببيتين لإسحاق في الفخر .
وهكذا نستطيع - على ضوء المهمة المزدوجة لذلك الفريق من النقاد
اللغويين - أن نفسر موقف الأصمعي من كثير من الشعراء ، لقد رفض

الاحتجاج بشعر الكميت والظرماع ، لأن الأول كان (جرمقائياً من جرميقي الشام) وكان الثاني يدخل ألفاظ التبيط في شعره . ولكن ذلك لم يمنع الأصمعي من تفضيل الظرماع على النابغة في وصف الثور ، على الرغم من أن النابغة هو الذي اخترع المعنى ، كما لم يمنعه من تسجيل سبق الظرماع إلى أحد التشبيهات العقم التي لم يسبق أصحابها إليها ، وسواء كان الذي سجل السبق للظرماع الأصمعي أو أبا عمرو أو خلفاً ، فإن الاعتراف بسبقه إنما يصدر عن رفضوا شعره على المستوى اللغوي . ونحن نذكر تفضيل الأصمعي لبشار ، وجعله آخر الشعراء ، ولا شك أنه آخرهم من حيث إمكان الاحتجاج اللغوي ، لكنه ليس آخرهم من حيث المستوى الفني ، أي أن القول بأن بشاراً آخر الشعراء لا يعني أنه لن يكون بعده شاعر يعتد به من الناحية الفنية ، لأننا نعلم تقدير الأصمعي لأبي نواس الصوت الثائر - ولو مجرد المخالفة - على ما ظن النقاد أنه من مقدمات الشعر العربي . كما أننا لا نستطيع الادعاء بأن تفضيل الأصمعي لبشار كان على أساس من انجازه قديم سار فيه الشاعر لأننا نعلم أن من حيثيات تفضيله لبشار استقلال الشاعر بأسلوب جديد تفرد به وأبدع فيه .

وعلى أساس نفس الموقف ، وعلى أساس نفس المهمة المزدوجة لذلك الفريق من العلماء يمكن أن نتقبل ما يروى عن أبي عبد الله محمد بن زياد المعروف ببن الأعرابي دون أن نرى فيه ما يسمى

بالتعصب ضد المحدثين والشعر الحديث . كانت قصة رجوع ابن الأعرابي عن تدوين أرجوزة لأبي تمام ، بعد أن علم أنها للشاعر المحدث ، هي الدليل القاطع - فيما تصور القائلون بتعصب ذلك الفريق من العلماء للقديم - على تحيزه ، لكن من الممكن - كما قلت - في ضوء المهمة المزروجة التي أشرت إليها ، أن نفهم حقيقة ذلك السلوك من ابن الأعرابي .

ونحن لا نتحل المبررات لتقدير فكرة متعسفة لا نجد الأدلة الكافية لتأييدها ، لقد مر بنا أن ابن الأعرابي كان يختم الشعراء بمروان وابن هرمة ، وأنه كان يعجب بها . وكلاهما لا يعد من القدماء ، ومر بنا إعجابه بأبي نواس ، وجعله صاحب أمدح بيت قاله مولد وجعله كذلك صاحب واحد من أحسن الابتداءات ، وكذلك تفضيله لمحمد ابن حازم الباهلي في أبياته في ذم الشيب وثناء الشباب ، وبالمثل فعل مع إسحق الموصلي الذي أشاد به كثيراً ووصفه بأنه الرجل الذي (يؤخذ من ماله ومن أدبه) ويقولون إنه أهدى إليه شيئاً من كتابه (النوادر) كتبه له بخطه . وامتد إعجاب ابن الأعرابي إلى العباس بن الأحنف وأبي العتاهية ، ولقد نجد في (الأغانى) خبيراً يشير إلى أن ابن الأعرابي كان يعيب أبا العتاهية ، ومع أن الرواية تنص على أنه كان يثلب أبا العتاهية - لاشعره - فإنها تكمل الصورة ، وتدلل على أن أشعار أولئك المحدثين كانت ماثلة في أذهان أولئك العلماء وتحت سمعهم وبصرهم ، يتقدونها

ويبينون الحسن من القبيح فيها ، دون نظر إلى مسألة الزمن - المزعومة - على الإطلاق .

ولقد مر بنا أيضاً الحديث عن موقف خلف الأحمر من ابن منذر ، ثم نجد موقفه في تفضيل قصيدة لمروان على قصيدة للأعشى ، وكذلك موقفه من بشار وكيف كأن يأتيه فيكتب عنه شعره ويعظمه ، وكان لأبي عبيدة مع ابن منذر موقف مشابه لموقف خلف معه ، لكننا لم نسمع أن أبا عبيدة يفضل بشاراً ومحكم له بأنه يملك من الأبيات الجيدة أكثر مما يملك الجاهليون والإسلاميون وكل ذلك يدل على أنه لا أساس لصحة ما يقال عن تعصب اللغويين والنحويين الأوائل - والذين مثلوا دور النقاد في زمانهم - ضد الشعر الحديث . وضد التجديد في هذا الشعر .

أمثلة أخرى من اللبس في فهم النصوص :

غير أن ما حدث هو أن الدارسين المحدثين نظروا إلى توقف اللغويين والنحاة - في الاحتجاج اللغوي - عند عصر معين ، أو شعراء معينين ، فاعتبروا ذلك تعصباً ضد الشعر الحديث ، وغضباً منه ، وتبع هذا خلطهم بين روح المحافظة في اللغة ، وقولهم - أو قول بعضهم - إن اللغة لا يقاس عليها ، وبين كراهية التجديد والإبداع ؛ في كل النواحي ، والتعصب للقديم أيّاً كان ، فعل ذلك نِكَلْسُنْ وفعله أحمد أمين ، وكذلك جُرُونْبَاوْمْ وغيرهم .

ومن الأمثلة على هذا الخلط أيضاً ما نجده في حديث (بروكلمان) عن الأصمعي يقول : (ويؤكد ابن جنى في «الخصائص» تعظيم الأصمعي للسنة والرواية ، وكرهيته للبدعة والرأى ، ومن ثم كان يكره اختراع المعاني والعناية بالعروض) والواقع أن فهم بروكلمان لعبارة ابن جنى في هذا الصدد ، واستنتاجه منه كراهية الأصمعي للاختراع في المعاني يمثل ذروة المشكلة التي وقع فيها الدارسون المحدثون حين خطوا بين منع الاستشهاد في اللغة والنحو شعر المحدثين ، وبين التعصب : كما أنهم خلطوا بين نزعة المحافظة في اللغة وقولهم إن اللغة لا يقاس عليها ، وهي النزعة التي أدت بهم إلى الطعن على محاولة أي تمام في هذه الناحية ، وبين مقاومة الجديد بصفة عامة ، بما في ذلك الاختراع في المعاني .

ويمثل فهم بروكلمان لعبارة ابن جنى في الخصائص خلطاً من النوع الثاني ، أعنى الخلط بين نزعة المحافظة في اللغة وبين كراهية الاختراع والتجديد في المعاني ، ففي الخصائص : باب في أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب يقول فيه ابن جنى (إن الأصمعي ليس من ينشط للقياس ، ولا للحكاية التعليل) .

ومع أن ما أشار إليه بروكلمان من حديث ابن جنى عن الأصمعي لا يَحتمل كل ما فهمه منه ، إلا أننا نذكر أن الأصمعي وكثيرين غيره من اللغويين كانوا على القول أن اللغة لا يقاس عليها ، وزاد الأصمعي إلى

ذلك - وإن لم ينفرد به أيضاً - كراهية تفسير القرآن بالرأى ، ويقول المراد : إن الأصمعي كان لا ينشد ولا يفسر فيه ذكر الأنواء ، لقول الرسول ﷺ إذا ذكر النجوم فأمسكوا . . وكان لا يفسر شعراً يوافق تفسيره شيئاً من القرآن ، هكذا يقول أصحابه .

وبالإضافة إلى ذلك فنحن نعرف موقف الأصمعي من أبي عبيدة في تأليف الأخير لكتاب « مجاز القرآن » وأن الأصمعي رأى أن عمله هذا يعد تفسيراً للقرآن بالرأى ، وهو مبدأ لم يكن يقره الكثيرون ، حيث كانوا يرون أن التفسير الأمثل للقرآن هو ما أثر عن الرسول ، وبالتالي كانوا يتحرجون في تفسير القرآن بالرأى ، واشتهر الأصمعي بهذا التحرج ، ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه (كان شديد الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة ، فإذا سئل عن شيء منها يقول : العرب تقول : معنى هذا كذا ، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو) .

وكما قلت ، كان ذلك موقف الكثيرين - وإن لم يدل على شيء من رجعية الفكر ، بل إن من المؤلفين من يرى أن ذلك الموقف من الأصمعي لم يكن حقيقياً ، وإنما كان نكايه من الأصمعي في أبي عبيدة ، أما الأخير فقد رأى أن القرآن نص عربي يجري على سنن العرب في كلامهم ، ومن هنا فسر القرآن وعدته الأولى الفقه بالعربية وأساليبيها . على أي حال كان الأصمعي وغيره من الغويين مثل الأخفش - الذي نهي لو ضرب أبا عبيدة بسبب تأليف مجاز القرآن - يكرهون نزعة التفسير

بالرأى ، وكما قلت لم يكن مثل هذا اسلك يدل على شيء من الرجعية في الفكر ، وإنما كان بخضع لرأى شام ذي نظرة خاصة فيما يتعلق بتفسير القرآن .

ولاشك أن بروكلمان قد أسقط فهمه لموقف الأصمعي في هذه الناحية على تفسيره . وفهمه لعبارة ابن جني في الخصائص وإلا فهي لا تحمل أى معنى يدل على محافظة لرجل في غير مجال اللغة وتفسير القرآن ، وكثير من حديث ابن جني ينصب على محافظة الخليل بن أحمد وذهابه إلى القول بأن اللغة لا يقاس عليها ، فهو - كما قلت - رأى لا ينفرد به الأصمعي ، ثم هو لا يستوجب الوصف بكرهية التجديد في كل النواحي ، على نحو ما فعل بروكلمان .

على أن النوع الآخر من الخلط الذى وقع فيه المحدثون ، والذى يمثل العنصر الأوضح في الصورة ، هو خلطهم بين عدم الاحتجاج بالشعر الحديث وبين معنى التعصب ضد هذا الشعر . فعلى الرغم من اعتراف نكلسن بوجود اعتبارات لغوية وراء التثوية بالشعر القديم ، فإنه ظل على القول باعتقاد أوائل النقاد المسلمين بضوق الشعر الجاهلى ووصوله إلى درجة من الكمال لا يطمع في مجاراتها شاعر حديث . وتابع طه إبراهيم نفس النظرة حين قرر أن (تعصب) الغويين للقدماء كانت مستنداً إلى أسباب لغوية دون أن ينصرف إلى الأسباب الفنية في الشعر لكننا لا نلبث أن نراه يرتب على تعصب اللغويين للشعر القديم لمكانته اللغوية ،

ازدرهم للشعر الحديث وتجاهلهم له .

وكذلك خلط أحمد أمين بين ما قرره اللغويون من اعتبار الشعر القديم هو المادة الصالحة - لغوياً - للمساعدة على تفسير القرآن وشرح مفرداته ، وبين انتصار الدعاة إلى القديم ، فصور الموقف على أنه معركة بين معسكرين انتهت بانتصار أصحاب القديم وسيطرتهم ، فإذا رحنا فنفس حدود هذا الانتصار والمدى الذي سيطر عليه القديم وجدناه لا يتعدى الاستشهاد اللغوي .

ومن أوضح صور الخلط هذه ما نجده عند محمد مندور ، وذلك حين تحدث عن انصراف جهد العرب في أول الأمر إلى المحافظة على لغتهم وعلى سلامة هذه اللغة التي يتوقف عليها فهمهم لمصادر ديهم ، مما دفع علماءهم إلى تدوين الشعر القديم للاحتجاج به في تفسير القرآن والحديث ، وهو جمع لم يكن يشغلهم فيه - كما يقول - جمال ذلك الشعر بقدر ما شغلهم صلاحيته للاستشهاد . وهذا تفكير منطقي لا يلبث أن يخرج عليه حين يربط بين الانتصار للقديم في ذلك المجال المحدد - مجال الاستشهاد اللغوي - وبين ما يذهب إليه من جرى الشعراء وراء محاكاة الشعر القديم في خصائصه الفنية ، وهو الذي اعترف بأن جمع الشعر القديم لأغراض لغوية لم يكن يهتم بالجمال الفني فيه ، بل لقد ذكر صراحة أن « تعصب » اللغويين للشعر القديم لم يكن قائماً على أسباب فنية أصلاً .

وقد تنبه شكري عياد فعلاً إلى عدم صلاحية الشعر الحديث - في نظر أولئك النقاد - للاستشهاد اللغوي والنحوي ، وعلل بذلك عدم رواية ابن سلام في (الطبقات) لشعر المحدثين ، إلا أنه لا يلبث أن يصور سلوك ابن سلام في هذه الناحية على أنه تعصب للشعر القديم - الذي رواه - ضد الشعر الحديث - لدى أغفل روايته - وهذا هو ما يمكن فهمه من وصفه لابن قتيبة . انذى روى شعر المحدثين ، بأنه قد « تسامح » في هذه الرواية ، ولا يستقيم يصف ابن قتيبة بالتسامح إلا مع وصف غيره بالتعصب .

ومن أمثلة الفهم لإعلاء اللغويين من شأن الشعر القديم كمصدر للغة النقية على أنه تعصب لذلك الشعر ضد شعر المحدثين ما ذهب إليه شريق ضيف ، في حديثه عن دور اللغويين في المحافظة على اللغة والعمل على بقائها نقية سليمة ، فهؤلاء العلماء (كانوا حراساً أمناء على العربية ، فوضعوا قواعدها ودقائقها وجمعوا شعرها القديم ، واتخذوه مثلاً أعلى للفصاحة والبيان ، وظلوا يذودون عنها ذباً قوياً متعصبين للجاهليين تعصباً شديداً ، فهم الشعراء حقاً ، وغيرهم عالة عليهم ، بل لقد أهدروا شاعرية معاصريهم ، ولم يجعلوا لشعرهم حرمة ولا فضلاً ، وإن قالوا حسناً فقد سبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحاً فن عندهم ، ومنعوا لاحتجاج بشعرهم ، فهم لا يحتاجون في مسائلهم النحوية واللغوية إلا بعرب البادية) .

وإلى نفس هذا المنحى تقريباً ذهب جرونباوم ، وذلك بتصريحه إن علم اللغة كان بمثابة العامل المحافظ في الأدب وأن القلق على الوضع الأدنى الناجم عن تلاشي الصلة ما بين أهل المدينة ولغة البدو الفصحى شجع على المضي في الاتجاه التقليدي .

هكذا نحت سيطرة فكرة التعصب للقديم ، وما نتج عنها من تصورٍ جرى الشعراء وراء هذا القديم ، تتحول عملية استمداد الشواهد اللغوية والنحوية من الشعر القديم إلى تعصب لذلك القديم ، ثم يتحول ذلك التعصب إلى إهدار لشعر المحدثين ، ثم تصور النتيجة على أنها الجرى في ركاب القديم ، وهو التصور الذي قام هذا البحث على هدمه من الأساس .

كلمة أخيرة

هذه رحلة أرجو - على قصرها - أن تكون كافية في توضيح ما أردت الكشف عنه من حقيقة موقف قدامى النقاد - ابتداء من القرن الثاني الهجرى - من شعر الشعراء المحدثين في العصر العباسى ، خاصة ذوى النزعات التجديدية منهم ، مثل بشار وأبى نواس .
وقد اتضح أن ذلك الموقف لم يكن بحال من الأحوال موقف التعصب ضد أولئك الشعراء .

على العكس من ذلك كان موقف قبول والتشجيع ، وهى الحقيقة التى تدخلت فى طمسها عوامل كثيرة من اللبس ، والتعجل فى فهم النصوص ، والخطأ فى توجيهها وعدم التسه إلى المهام العديدة المتباينة التى فرضت على تصرّحات أولئك النقاد كثير من التعارض الذى تساعد على إبرازه النظرة الجريئة ، ونقص الاستقواء .

وفى نفس الوقت تساعد على تجاوزه ، وتبين الحقيقة وراءه النظرة لكلية المتكاملة ، هذه النظرة التى كانت أساس منهجنا فى هذا لكتاب .



دار المعارف

تقدّم

خصم ٢٠٪ على كتب دار المعارف
١٠٪ على كتب الغير : عربية ومستوردة
٥٪ على الكتب الجامعية

لأصدقاء دار المعارف
مرحباً بك صديقاً لنا

تقدم إلى أقرب مكتبة من مكبات الدار :

- اريد نموذج طلب الصداقة واستلم بطاقة الصديقت
- ارفع مبلغ جنيه واحد
- عندما تفصل مشترياتك إلى ٢٥ جنيها سيرد إليك الجنيه
- تمتع بمميزات الصداقة طالما تحمل بطاقة الصديقه

مكبات دار المعارف
منتشرة في المدن الكبرى

القاهرة - الإسكندرية - طنطا - شبين الكوم - الزقازيق - المنصورة
الاسماعيليه - العريش - أسيوط - سوهاج - قنا - أسوان

١٩٧٨/٥٣٢٤	دقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٥٣٩-١	الترقيم الدولي

٣/٧٨/٢٨٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.٢٠٠٤.ع.)